الفصل الأول

مؤلفات الجاحظ

التى واجه فيها الشعوبية

وهذه الكتب والرسائل التى نُسِبت للجاحظ وتعرَّض فيها للشعوبية يمكن أن نقسمها كالآتى:

أولاً : كتب ورسائل كان الجاحظ فيها صريح المواجهة مع الشعوبية.

ثانيًا : كتب ورسائل تعرض الجاحظ فيها للشعوبية عن طريق الرمز والإيحاء.

ثالثًا : كتب ورسائل للجاحظ أسئ فهمها وظن بأنها تدافع عن الشعوبية؛ ولذا شُكِّكَ فى نسبتها للجاحظ.

رابعًا: كتب نُحِلت على الجاحظ لأسباب شعوبية.

وسنبدأ الآن بدراسة الكتب التى كان الجاحظ فيها صريح المواجهة مع الشعوبية.

كتاب الشعوبية

أما عن الكتب التى كان الجاحظ فيها صريحًا فى مواجهته للشعوبية فيأتى على رأسها كتاب "الشعوبية" الذى ذكره فى كتابه البخلاء بعد عرضه لأبيات شعرية عُيِّر فيها بعض قبائل العرب بأكلهم مستقبح الطعام بقوله: "وهذا الباب يكثر ويطول، وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا إليه من تصنيف الحالات: فإن أردته مجموعًا فاطلبه فى كتاب الشعوبية فإنه هناك مستقصى"(١).

ويمكننا من خلال قراءة النماذج من الأخبار والأشعار التى عرضها الجاحظ فى كتابه البخلاء عند ذكره كتاب الشعوبية أن نستدل أن هذا الكتاب يتعرض بصورة خاصة لمطاعن الشعوبية على أطعمة العرب ومشاربهم من خلال شعر الهجاء الذى تلقفته الشعوبية، ورمت به كل أفراد القبيلة التى هُجِيَ أحدها أو بعضها بأكل شئ من خبيث الطعام ومستقبحه.

على أننا لا نستبعد أن يكون الجاحظ فى هـذا الكتـاب قـد واجـه الشعوبية فى مطاعن أخرى أخذوها على العرب فى أساليب حياتهم وعاداتهم؛ لأن اسم الكتاب يوحى بأنه مواجهة عامة مع الشعوبية خلاف كتاب العصـا الذى ورد فى كتاب البيان والتبيين فهو مواجهة محدودة بمـا يـدور حـول العصا من مطاعن للشعوبية على العرب سواء فى خطابتهم التى يتنـاولون عندها العصا أم عند قتالهم بها.

ولسنا نستطيع الحكم فى بيان ذلك؛ لأن الكتاب قد فُقِد ولم يصـلنا أى خبر عنه سوى إشارة الجاحظ السابقة إليه فى كتاب البخلاء.

كتاب العرب والموالى

أيضًا من كتب الجاحظ التى نظن أنه تعرض فيها للصراع الشـعوبى العربى ولم تصل إلينا كتاب العرب والموالى، الذى ذكره الجاحظ فى كتـاب الحيوان معبرًا عن اعتراض المعترضين عليه بقوله: "وعبتنى بكتاب العـرب والموالى، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب مـا ليس لهم"(٢).

ومن خلال بعض النصوص القليلة التى نقلها صاحب العقد الفريد من هذا الكتاب يمكننا أن نستشف – إلى حد ما – أنه يعـرض بعـض مراحـل الصراع بين العرب والشعوبية، كمرحلة بنى أمية التى لاقى فيهـا المـوالى كثيرًا من الشدة والعنت من سياسة الأمويين، ويعطى الجاحظ أمثلة على ذلك بنقش الحجاج على أيدى الموالى الثائرين على الدولـة مـع ابـن الأشـعث وتفريقه لهم فى البلاد(٣).

كما يذكر الجاحظ فيه بعض الشعراء الموالى واتجاهـاتهم الشـعرية الجديدة، وابتكاراتهم، ذاكرًا أن ذلك مما يتباهى به الموالى علـى العـرب ،

ومن ذلك حديثه عن أبى نواس على أنه أحد الشعراء الموالى الكبار ، ومن أفضل شعراء عصره [٤].

والكتاب – من خلال النظر فى هذه النصوص التى وصلت إلينا منه – يبدو أنه لا يعرض لصور القهر التى لاقاها الموالى من الأمويين فحسب، بل يعرض أيضًا للأشخاص البارزين والنابغين فيهم كأبى نواس، ويعرض مظاهر نبوغهم.

ومن هنا فهذا الكتاب بهذا الشكل – ومن خلال تأمل ما وصلنا من نصوص منه – لعله كان محاولة من الجاحظ لرصد التيار الشعوبى فى الموالى منذ عصر بنى أمية، وفى الدولة العباسية، وكان رصد الجاحظ مصحوبًا برغبته فى إرضاء عامة النفوس: نفوس العرب ونفوس الموالى؛ ولذا ذكر مزايا الفريقين عسى أن يكون ذلك داعيًا إلى إرضاء الجميع، وإيقاف نار الخصومة والتجنى خاصة من قبل الموالى .

وبسبب ذكر الجاحظ فى هذا الكتاب مزايا بعض الموالى ومواهبهم كأبى نواس تجنى خصوم الجاحظ عليه، وغيروا عنوان هذا الكتاب بما يتفق وميولهم العدائية نحو الجاحظ؛ فسموه بـ"فضل الموالى على العرب"[٥] وأخذوا يعدونه من سقطات الجاحظ، ومن هؤلاء الخصوم عبد القاهر البغدادى[٦] والإسفراييني[٧].

وقد فات البغدادى والإسفراييني أن من أساليب الجاحظ فى كتبه أن يعرض حجج الخصوم بقوة وبأحسن أدلتهم، حتى إذا ما أغار عليها وهتكها سقطت قلاعهم ولم يبق لهم حجة يستندون إليها بعد ذلك.

كما فاتهما أن الجاحظ أراد بهذا الكتاب عقد صلح بين الموالى والعرب بدلاً من ذلك الصراع المستعر بينهما ، فذكر لكل فريق مزاياه فى هذا الكتاب .

كتاب العرب والعجم

أيضًا من كتب الجاحظ التى لم تصل إلينا – ونظن أنه من خلال التأمل فى النصوص التى وصلت إلينا منه أنه عرض فيه للصراع الشعوبى العربى – كتاب العرب والعجم، وهو غير كتابه العرب والموالى، ويوضح الجاحظ أن الكتابين مختلفان فى قوله: "وعبتنى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب. ونسبتنى إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما فى المعاد من الخطل وحمل الناس المؤن"(٨).

ويشير الجاحظ لكتابه العرب والعجم خلال كتابه فى الأوطان والبلدان بقوله: "وقلتم: خبرونا عن الخصال التى بانت بها قريش من جميع الناس. وأنا أعلم أنك لم ترد هذا، وإنما أردت الخصال التى بانت بها قريش من سائر العرب، كما ذكرنا فى الكتاب الأول الخصال التى بانت بها العرب على العجم..." (٩).

وواضح من خلال الفقرة السابقة التى تعرض فيها الجاحظ لهذا الكتاب أن مضمونه يتناول فضائل العرب التى لا يوجد عند العجم مثيل لها كامتيازهم فى الشعر والارتجال فى الخطابة، وما إلى ذلك من مواهب العرب وقدراتهم التى ذكرها الجاحظ عنهم فى مواضع مختلفة من كتبه(١٠).

ومن هنا فكتاب العرب والعجم فيما يبدو يختلف عن كتاب العرب والموالى فى أن الأول منهما يواجه الشعوبية بمزايا العرب ويوضح لهم قدراتهم التى يجهلونها أو يتناسونها ولا يعترفون بها أمام حضارتهم. وإذًا فهذا الكتاب أدخل فى منطقة الصراع الشعوبى العربى من الكتاب الآخر حول العرب والموالى الذى يترضَّى الجاحظ فيه الموالى ويحاول أن يوفق بينهم وبين العرب تهدأة للصراع الناشب بين الفريقين.

ومن أجل أن تتضح الصورة أكثر حول الفرق بين كتابى العرب والموالى، والعرب والعجم – فيما يمكننا الاجتهاد بشأنهما من خلال النظر للنصوص التى وصلت إلينا منهما – يحسن بنا أن نعرف المقصود بالموالى والمقصود بالعجم.

أما الموالى فهم " كل من أسلم من غير العرب، وذلك لأن هؤلاء إما أن يكون أصلهم أسرى حرب استرقوا ثم أعتقوا فصاروا موالى . وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة، وهؤلاء كانوا حينما يسلمون ينضمون إلى العرب ويدخلون فى خدمتهم ويتحالفون معهم لكى يعتزوا بشوكتهم وقوتهم. وبذلك يصبحون موالى أيضًا بالحلف والموالاة"(١١).

وبعبارة أوجز فالمولى هو من أسلم من العجم وأصبح مندمجًا مع العرب بعلاقة الولاء، ومنهم من يحتفظ بحريته، ومنهم من شمله الرق.

أما العجم فهم الشعوب والأمم الأعجمية.

ومن هنا فلفظ العجم أشمل من لفظ الموالى، ولفظ الموالى أدل على العجم الذين امتزجوا بالعرب المسلمين بعد الفتوحات الإسلامية وأصبحوا معهم كيانًا واحدًا للأمة.

ومن هنا فليس بغريب أن نرى الجاحظ يربط بين الشعوبية والعجم فى كتاباته على أساس أنهم أمم وشعوب لم يحدث الاندماج والامتزاج بينهم وبين العرب المسلمين، على خلاف الموالى الذين يمتزجون فى المجتمع بإخوانهم العرب المسلمين؛ ولذا فالجاحظ تختلف نبرة اتهامه لهم بالشعوبية والتآمر على العرب والإسلام من موضع لآخر فى كتاباته، فهو يحاول أن يذكر مزاياهم وفضائلهم فى كتب كثيرة خصصها عن شعوب الأمة الإسلامية وأجناسها فى عصره كرسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة، وكتابه فخر السودان على البيضان، وفى كتب أخرى يحاول أن يوفق الصلة بينهم وبين العرب ككتابه الموالى والعرب ورسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة،

ولكنه فى كتب أخرى نجده يحاصرهم فيها ليكشف مؤامراتهم ضد دولة الإسلام، وذلك حين لا يجد فى الوسع صبرًا على أحقادهم ومؤامراتهم.

ولندلل على ذلك نذكر ذلك النص الذى يربط الجاحظ فيه بين الشعوبية والعجم فى حين يشير إلى أن الموالى ليسوا ببعيدين عن دائرة الشعوبية، يقول الجاحظ: "والحمية التى لا تبقى دينًا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب"(١٢).

كما يتضح لنا الفرق بين الموالى والعجم وصورة المخزون الشعوبى عند الموالى فى قول الجاحظ: "قد نجمت من الموالى ناجمة، ونبتت منهم نابتة، تزعم أن المولى بولاية قد صار عربيًّا، لقول النبى ﷺ: "مولى القوم منهم"، ولقوله: "الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب".

قال: فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب ، وأن الله لما حول ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم .

قالوا: فنحن معاشر الموالى بقديمنا في العجم أشرف من العرب، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرف من العجم . وللعرب القديم دون الحديث. ولنا خصلتان جميعًا وافرتان فينا، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة"(١٣).

ولا يسع الجاحظ أمام هذا المنطق الشعوبى الذى يستعلى على العرب ومن سواهم إلا أن يقول لهؤلاء الموالى: "وأى شئ أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك وهو مقر أنه صار شريفًا بعتقك إياه"(١٤).

بقى أمر نحب أن نشير إليه بخصوص كتاب العرب والعجم للجاحظ، وهو أن ياقوتًا وابن النديم قد نسبا للجاحظ كتابًا بعنوان "التسوية بين العرب والعجم"(١٥)، ويُظَن أنه هو نفسه كتاب العرب والعجم(١٦) الذى ذكر الجاحظ اسمه فى مقدمة كتاب الحيوان(١٧).

ونظن أن لفظ التسوية دخيل على اسم الكتاب، وقد ألحق به من قبل الناسخين الذين ربطوا الصراع بين العرب والعجم بمصطلحى الشعوبية والتسوية، ومن هنا أجازوا لأنفسهم إدخال تلك اللفظة "التسوية"على اسمه[١٨].

ومن هنا فإننا نظن أن كتاب العرب والعجم – كما ذكرنا – بعيد عن منطقة التسوية التى لا يرفضها الجاحظ، بل يدعو إليها فى كتبه ورسائله، ولما كان لفظا الشعوبية والتسوية عند كثير من المؤرخين والباحثين – وبالطبع الجاحظ ليس منهم – مترادفين فقد سهل على الكثيرين وضع أحدهما مكان الآخر[١٩] .

كتاب فخر السودان على البيضان

ومن هذه الكتب التى عرض فيها الجاحظ لأجناس الأمة كتاب فخر السودان على البيضان الذى نبه فيه لقدر طائفة السودان – يقصد بهم الزنج والأحباش على وجه الخصوص – واعتبر لها خطرها[٢٠].

على أن الجاحظ فى هذا الكتاب لم يكتف بأن يذكر مزايا السودان والحبش، وإنما ذكر أيضًا فيه المزاعم الشعوبية التى كانوا يطلقونها على العرب والمسلمين [٢١].

رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة

كما تناول الجاحظ فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة عناصر الجيش والأمة من عرب وفرس وموالٍ وبنويين وأتراك، وذكر فيه لكل طائفة مزاياها، وحرص ألا ينحرف قلمه إلى أن يتحول حديثه عن هذه الطوائف إلى ذكر المحاسن والعيوب، والطعن والرد، فيختفى الهدف الذى من أجله وضع الجاحظ الكتاب وهو التأليف بين عناصر الجيش والأمة [٢٢].

ومع ذلك فقد جاء فى هذه الرسالة ما يشير لمحاولة كل عنصر فى الجيش إبراز قدراته وخصاله وغمز غيره من العناصر؛ لأنها أقل منه فى

هذه القدرات والخصال؛ مما يعنى أن بالرسالة بعض الملامح الشعوبية خاصة حين يكون الهجوم واضحًا من بعض هذه العناصر على العرب.

كتاب أبناء السرارى والمهيرات

كما يبدو أن الجاحظ قد انشغل بالحديث عن الصراع الشعوبى العربى فى كتب أخرى لم تصلنا، ولكن يبدو من عناوينها وبعض النصوص التى وصلت منها اهتمامها بهذا الأمر ككتابه "أبناء السرارى والمهيرات" الذى يشير إليه الجاحظ خلال كتابه البيان والتبيين، حين حديثه عن بعض الموالى الذين عرفوا ببعض الألقاب الغريبة(٢٣).

ونعتقد أن ما نقله عبد الكريم النهشلى عن الجاحظ حول أبناء الإماء هو جزء من هذا الكتاب المفقود، والذى جاء فيه "قال الجاحظ: أئمة الشيعة من ولد الحسين الذين عندهم: أنتم تعلمون كثيرًا من مراشد الدين والدنيا، وعند الغلاة منهم أنهم يعلمون الغيب – أولاد إماء" (٢٤).

ويذكر الجاحظ أئمة الشيعة واحدًا بعد الآخر، ثم يقول فى هذا الكتاب: "ولم يكن فى بنى مروان أرجل من مروان بن محمد وأمه أمة. ولا أفضل من يزيد الناقص وأمه أمة وهى بوران دخت بنت فيروز بن يزدجرد.

ولذلك كان يرتجز فى حروبه ويقول :

أنا ابن كسرى وأبى خاقـــــــان وقيصر جدى وجدى مروان

وهذه ولادة ثالثة" (٢٥).

والواضح من النصوص التى قرأناها من هذا الكتاب أنه يشير لأبناء الإماء ممن آباؤهم عرب كيزيد الناقص ومروان بن محمد، كما أنه يقرب المسافة بين الموالى والعرب من خلال ذكر ذلك النسل الناتج من تزاوجهما.

كما يبدو أن الكتاب يتناول عرضًا لبعض نماذج من الموالى أصحاب الشأن فى الأمة كواصل بن عطاء[٢٦]، مما يعنى أنه يسير فى الاتجاه الذى يحاول إرضاء الموالى وبعث الروح الطيبة فى العلاقة بينهم وبين إخوانهم العرب .

كتاب الهجناء والصرحاء

كما يبدو لنا أن الجاحظ قد تعرض لجانب من الصراع الشعوبى العربى فى كتابه الهجناء والصرحاء الذى يشير إليه فى أكثر من موضع فى كتبه[٢٧] .

ويبدو من بعض النصوص القليلة التى ذكرها الجاحظ فى كتابه البرصان والعرجان، وأحال إلى أنها موجودة فى كتاب الهجناء والصرحاء، أن الجاحظ يتناول فيه ذكر بعض الموالى والعبيد فى مجتمعه ممن ذاع صيتهم، ويقابل ذلك بذكر بعض الصرحاء الذين ذاع صيتهم فى المجتمع أيضًا.

ومن الشخصيات التى تحدث الجاحظ عنها فى هذا الكتاب من الهجناء "ذو الركبة العوجاء" الذى يقول الجاحظ عنه: "ومن الحدب: ذو الركبة العوجاء الشاعر العبد، وهو الذى يقول :

سخر الغوانى أن رأين مويهنًا كالذئب أطلس شاحب منهوك

وقد ذكرنا قصته فى كتاب: الهجناء والصرحاء"[٢٨].

كتاب مفاخرات قريش

كما أن كتاب الجاحظ "مفاخرات قريش"[٢٩] يبدو أنه يدخل ضمن الكتب التى عرض الجاحظ فيها شيئًا من أبعاد الصراع الشعوبى العربى، ويتضح ذلك من خلال هذا النص الذى نقله ابن أبى الحديد عنه، يقول ابن أبى الحديد: "وقال شيخنا أبو عثمان فى كتاب" مفاخرات قريش "لا خير فى

ذكر العيوب إلا من ضرورة ، ولا نجد كتاب مثالب قط إلا لدعى أو شعوبى، ولست واجده لصحيح النسب، ولا لقليل الحسد، وربما كانت حكاية الفحش أفحش من الفحش، ونقل الكذب أقبح من الكذب، وقد قال النبى ﷺ: "اعف عن ذى قبر"، وقال: "لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات".

وقيل فى المثل: "يكفيك من شر سماعه"، وقالوا: أسمعك من أبلغك، وقالوا: من طلب عيبًا وجده، وقال النابغة:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب"[٣٠].

ومن خلال هذا النص الذى عرضناه من كتاب الجاحظ "مفاخرات قريش" نقلاً عن كتاب شرح نهج البلاغة يتضح لنا أن الجاحظ مشغول فيه – أو فى جزء منه على الأقل – بجهاد الشعوبيين الذين يحلو لهم الطعن فى أنساب العرب، ويوضح الجاحظ فيه أن غواية الطعن فى النسب لا يقوم بها إلا شعوبى أو دعى، ويأتى بالأدلة والحجج من الحديث النبوى والشعر والخبر على فحش هذا العمل[٣١].

كتاب البيان والتبيين

أيضًا نجد الجاحظ تعرض لمواجهة الشعوبيين واتهاماتهم للعرب فى أساليب حياتهم وألوان معارفهم فى كتب يبدو من عناوينها أنها خُصصت لغير هذا الغرض، وإن كانت فى الواقع قد كتبت من أجل أغراض مختلفة منها مواجهة الشعوبية وإظهار الفضائل العربية.

ومن هذه الكتب كتاب البيان والتبيين الذى يبدو فى مجمله أنه عرض لأنواع الفنون القولية التى تفوق فيها العرب كالشعر والخطابة، مؤيدًا بالنماذج الكثيرة التى تؤكد هذا التفوق لهم[٣٢]، ويبدو هذا العرض كأنه دليل دامغ للرد على ما يرمى به الشعوبيون العرب من قلة شأن وإفلاس حضارى بين سائر الأمم.

كما أن الجاحظ انشغل فى جزء كبير منه بالصراع مع الشعوبية حول اتهاماتهم العرب فى أساليب حياتهم وعاداتهم وقتالهم ومواهبهم فى القول من شعر وخطابة خلال باب العصا من هذا الكتاب[٣٣].

كتاب البخلاء

وكتاب البخلاء للجاحظ هو أيضًا يدل على أن أحد أهداف الجاحظ الكبرى من تأليفه هو الدفاع عن فضيلة الكرم التى اتصف بها العرب، وحاول الفرس الشعوبيون هتكها بكل وسيلة كجمعهم وتشهيرهم بشعر الهجاء الذى يصف أحد العرب – أو بعضهم – بالبخل فعمموه على الجميع، وكإعلائهم من قيمة البخل والحرص التى يتصف بها الفرس على قيمة الكرم التى قرنوها بالإسراف والسفه.

ولذلك جاءنا كتاب البخلاء حافلاً بعرض نماذج من بخلاء الفرس كسهل بن هارون وبخلاء مرو[٣٤].

كما أنه مما يؤكد أن الجاحظ كان فى هذا الكتاب منتبهًا لكونه مواجهة من مواجهاته مع الشعوبية – ختام الجاحظ للكتاب بحديثه عن أطعمة العرب، ووصفه لها، ونفى اتهامات الشعوبيين حول ما أثاروه عنها[٣٥].

ويؤكد كثير من الباحثين على أن هدفًا كبيرًا من أهداف الجاحظ فى هذا الكتاب هو الرد على الشعوبية فى مطاعنهم ومزاعمهم على العرب، ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز الدورى الذى يقول: "إن مطالعتك لكتاب البخلاء تنقلك من السخرية إلى الجد، ومن إنكار البخل إلى تحليل شبه فلسفى يبين لك أن البخل طبع متأصل فى نفوس الشعوبيين وبذلك يقدم دفاعًا قويًّا عن الكرم"[٣٦] الموصوف به العرب.

على أنه لا يجب أن نغفل أن الجاحظ لم يكن هدفه فى كتاب البخلاء مجرد مواجهة الشعوبية وهتك بعض حصونها، وإنما كان يقصد أيضًا إلى أهداف أخرى لعل أهمها هو عرض ألوان من الفن القصصي والحواري فى موضوع البخل؛ ولذا فقد ذكر فى كتاب البخلاء لهذا السبب بعض بخلاء من العرب كالأصمعي(٣٧).

كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان

كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، ألفه الجاحظ من أجل عرض رجال العرب الذين عُرِفوا من خلال الشعر والأخبار باتصافهم ببعض العاهات والأمراض. وقد راق للشعوبيين أن ينظروا لهؤلاء الرجال الأعلام من خلال أمراضهم وعاهاتهم، وعدوا اتصاف كبار أعلام العرب بهذه الأمراض والعاهات طعنًا فى العرب.

والجاحظ – فى هذا الكتاب – يريد أن يصحح الصورة، فيذكر أنه لم يؤلف كتابه انسياقًا وراء الدعوات الشعوبية التى تعبث برجال العرب وقيمهم، وإنما ألفه لكي يذكر المواهب والقدرات التى اتصف بها هؤلاء الرجال من العرب.

فعند حديث الجاحظ عن برصان العرب يقول: "وهذا العدد من البرصان إنما وجدتموه فى جميع جزيرة العرب منذ كانت العرب إلى يومنا هذا، فهذا المقدار قليل، ولو قصدتم إلى أمة من الأمم يكون عدد جماعتهم على الشطر من عدد جماجم العرب لوجدتم عدد برصانهم على الضعف من عدد برصان العرب. ولولا طعن الحاسد لهم والباغى عليهم لكنت عسى ألا أتحمل لك نسخ هذا الكتاب مع ثقله علىّ وبالله التوفيق"(٣٨).

ولعل سبب ثقل الكتاب على الجاحظ أنه لا يحب أن يذكر عن أعلام العرب أى شئ فيه تعريض بهم كالمرض والعاهة، وكذلك يأتى ثقل هذا الكتاب عليه؛ لأنه توجد شعرة دقيقة بين منحى المدافعين عن العرب فى عرض مضمون هذا الكتاب – كالجاحظ – والمهاجمين لهم كالهيثم بن عَدِيّ[٣٩]، ويخشى الجاحظ أن يتجاوز هذه الشعرة فى أي موقف من المواقف حين حديثه عن شخصيات العرب المصابين بالأمراض والعاهات.

ويوضح الجاحظ فى هذا الكتاب أن سبب تنطُّع الهيثم بن عدى ومن على شاكلته ممن أكثروا فى عرض أعلام العرب ذوى الأمراض والعاهات هو شعر الهجاء الذى يهجو العرب فيه بعضهم البعض، يقول الجاحظ: "ولكن العرب تتباهى بالأشعار المستخشنة التى تستدعى الرواية والحكاية، والرواة لا تعنى بلسان الزط وسكان الآجام، لهوانهم عليهم، ولأنهم لم يتعايبوا بينهم بالكلام الذى يحفظ الرواة مثله. ولو جمعتهم أيضًا كلهم لم يكونوا كقبيلة من قبائل بنى سعد"[٤٠].

كما يشير الجاحظ فى هذا الكتاب إلى أن العربى حين يُبْتَلى بالمرض والعاهة لا يقر بالعيب فيهما، وإنما ينبه السامعين إلى المزايا فيهما، وهذا من ذكائه، يقول الجاحظ: "وإذا كان الأعرابي يعتريه البرص فيجعله زيادة فى الجمال، ودليلاً على المجد، فما ظنك بقوله فى العرج والعمى، وهما لا يستقزران ولا يتقزز منهما ولا يعديان ولا يظن ذلك بهما، ولا ينقصان من تدبير، ولا يمنعان من سؤدد"[٤١]، كما يقول: "ولأن الأعرابي حين ابتلى بالدمامة والقلة، ثقل عليه أن يقر بالذلة والضعف، فاحتج لذلك وأحال الناس على معنى لا يدركونه بالمشاهدة وهذا من ذكائه ودهائه.

فبهذه النفوس – حفظك الله – حفظوا أنسابهم، وتذاكروا مآثرهم، وقيدوا لأنفسهم بالأشعار مناقبهم، وحاربوا أعداءهم وطالبوا بطوائلهم، ورأوا للشرف حقًّا لم يره سواهم، وعملوا على أن الناس كلهم دونهم"[٤٢].

وها نحن نرى الجاحظ يشارك الأعرابى ذكاءه – فى هذا الكتاب – فى تحويله لاتهامات الشعوبية على العرب إلى مواطن فخار وإعجاب، وشهادات على امتياز العرب وتفوقهم، فى جمعه فى هذا الكتاب لكثير من الشخصيات العربية التى عرفت بمواهبها فى الشعر والخطابة أو الحكمة والسيادة، وفى الوقت نفسه كانت مصابة ببعض الأمراض أو العاهات.

الكتب والرسائل التى تعرض فيها الجاحظ للشعوبية عن طريق الرمز والإيحاء

أما الكتب والرسائل التى ألفها الجاحظ وأشار فيها من طرف خفى للصراع الشعوبى العربى، فمنها كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، ورسالة الجواري والغلمان، وكتاب تفضيل البطن على الظهر، ورسالة فى مدح التجارة وذم عمل السلطان.

وقد يتساءل البعض لم لجأ الجاحظ للرمز وهو فى سبيل جدله للشعوبية وكشفه ادعاءاتها ؟

والرد على هذا السؤال يكون من خلال النقطتين التاليتين:

أولاً : أراد الجاحظ أن يستخدم حيوانات العرب ونباتاتهم كرموز لإعلاء شأن العرب فى مقابلة ما رُمِزَ به للعجم من حيوانات ونباتات – تفاخروا بها وأعلوا من شأنها – وفى ذلك رد على كيد الشعوبية الرمزي بكيد شبيه به، ويعلو عليه بقوة الحجة وصدق الهدف.

ثانيًا : أراد الجاحظ أن ينوع فى طرق جدله للشعوبية، فهو يستخدم فى مواجهتهم أحيانًا التصريح، وفى أحيان أخرى يستخدم التلميح والكناية التى قد تكون – كما يقول –أبلغ من تصريح[٤٣].

وهذا التنوع من شأنه أن يجذب القارئ لما فيه من ألوان مختلفة .

كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب

كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب لم يصل إلينا، ولكن الجاحظ يشير إليه خلال رسالة فى الجد والهزل إلى محمد بن عبد الملك الزيات[٤٤]، كما يذكر ياقوت الحموي أن الجاحظ قد ألفه وأهداه لإبراهيم بن العباس الصولي[٤٥].

وقد رمز الجاحظ فى هذا الكتاب للعرب بالنخيل التى تنتشر فى صحرائهم وبلادهم ، ورمز للشعوبية بالزرع الذى ينمو فى قراهم .

وقد التفت إلى ما وراء تأليف هذا الكتاب من رموز تتصل بالصراع الشعوبى العربي الدكتور شوقي ضيف[٤٦]، والدكتور محمد عمارة الذي يقول: إن الجاحظ: "يكشف ساخرًا، عن مدى الغلو الذي بلغته الشعوبية فى عدائها لكل ماله صلة بالعرب، حتى لقد سفهت من نمط معيشتهم والأدوات التى يستعملونها فى حياتهم، والنباتات التى تطبق أرضهم وتحسن صحراؤهم زراعتها! وجعلت من هذه الأشياء رموزًا قومية صيرتها أهدافًا فى الصراع"[٤٧]، كالنخيل[٤٨].

وتتضح صورة الرمز للصراع الشعوبي العربي فى هذا الكتاب بالنظر إلى ما يفهم من قول الجاحظ فى عقد الناس المناظرات بين الزرع والنخل، وتفضيل بعض الناس الزرع على النخل وتفضيل البعض الآخر النخل على الزرع.

يقول الجاحظ: "ومتى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الإخوان، ومتى صار تفضيل الحب وتقريظ الثمر يورث الهجران، ومتى تميزوا هذا التميز وتهالكوا هذا التهالك؟ ومتى صار تقديم النخلة ملة، وتفضيل السنبلة نحلة؟ ومتى صار الحكم للنعجة نسبًا وللكرمة صهرًا، ومتى تكون فيها ديانة وتستحكم فيها بصيرة، ويحدث عنها حمية"[٤٩].

على أن الصراع بين العرب والشعوبية لم يتوقف على التعصب للنباتات التى كانت تنبت فى بلاد كل منهما، وإنما شمل أيضًا الحيوانات – كما سوف نذكر فيما بعد –.

رسالة مفاخرة الجواري والغلمان

ومن رسائل الجاحظ التى استخدم فيها الرمز لتصوير الصراع الشعوبي العربي رسالة "مفاخرة الجواري والغلمان".

وقد رمز الجاحظ بالجواري إلى العرب؛ لأنهم لم يعرفوا فى جاهليتهم سوى التغزل بالمرأة والميل إليها، ورمز بالغلمان إلى الفرس الذين عرفوا الجنسية المثلية والميل للواط فى حضارتهم الساسانية(٥٠).

ويبدو الحس الشعوبي واضحًا فى هذه الرسالة حين يهاجم صاحب الغلمان شعراء العرب الجاهليين والأمويين الذين اعتادوا التغزل بالجواري دون الغلمان، وحين تهكمه من عادات العرب فى أكلهم القنافذ والضباب، يقول الجاحظ فى هذه الرسالة: "قال صاحب الغلمان: لو نظر كُثَيِّر وجميل وعروة، ومن سميت من نظرائهم إلى بعض خدم أهل عصرنا وممن قد اشترى بالمال العظيم فراهة وشطاطًا ونقاء لون، وحسن اعتدال، وجودة قد وقوام، لنبذوا بثينة وعزة وعفراء من حالق، وتركوهن بمزجر الكلاب. ولكنك احتججت علينا بأعراب أجلاف جفاة، غذوا بالبؤس والشقاء ونشئوا فيه، لا يعرفون من رفاغة العيش ولذات الدنيا شيئًا، إنما يسكنون القفار، وينفرون من الناس كنفور الوحش، ويقتاتون القنافذ والضباب، وينقُفُون الحنظل، وإذا بلغ أحدهم جهده بكى على الدمنة ونعت المرأة، وشبهها بالبقرة والظبية، والمرأة أحسن منهما: نعم حتى يشبهها بالحية ويسميها شوهاء وجرباء مخافة العين عليها بزعمه.

فأما الأدباء الظرفاء فقد قالوا فى الغلمان فأحسنوا، ووصفوهم فأجادوا وقدموهم على الجواري، فى الجد منهم والهزل"[٥١].

ويمكننا أن نفهم أن هذا النص يكشف أن شعراء الموالى ذوى الاتجاهات الشعوبية الواضحة كأبى نواس قد أدخلوا فى المجتمع بدعوى التجديد فى الأدب والشعر ألوانًا من المجون كالغزل بالمذكر لم يعرفها العرب فى جاهليتهم، وليتها لم تُعرف لما نشرته من انحلال فى بعض جوانب المجتمع.

كما لا يخفى أيضًا فى هذا النص هجوم الشعوبية ممثلة فى صاحب الغلمان على أساليب العرب فى تسميتهم أبناءهم، وهجومها على العرب أيضًا فى الحيوانات التى ترافقهم فى بيئتهم الصحراوية، وكذلك هجومها على أطعمة العرب.

كتاب تفضيل البطن على الظهر

كما نظن أن كتاب الجاحظ تفضيل البطن على الظهر فيه رمز للصراع الشعوبى العربى؛ فمفضلو الظهر هم الفرس، فقد ظهر اللواط فى دولتهم الفارسية بين عدد منهم ، وقد أشرنا إلى أن الجاحظ قد ذكر أن العرب قد عرفوه عن طريق الفرس.

أما مفضلو البطون فهم المائلون للجوارى والنساء، وهذه طبيعة العرب والطبيعة التى فطر الله عليها الإنسان، وقد انتصر الجاحظ فى هذا الكتاب للبطون على الظهور[٥٢].

ويعيب الجاحظ على مفضل الظهور أنه يذهب إلى ما يخالف أوامر الله عز وجل والفطرة التى خلق عليها الناس، ويخاطبه بقوله: "وقد رأيت منك أيها الرجل إفراطك فى وصف فضيلة الظهور، وفى محل الريبة وقعت،

لأنا روينا عن عمر أنه قال: من أظهر لنا خيرًا ظننا به خيرًا، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا"[٥٣].

رسالة مدح التجارة وذم عمل السلطان

كما نظن أن رسالة الجاحظ مدح التجارة وذم السلطان قد كتبها ليدافع عن صناعة العرب، وهى التجارة فى مقابل الأرستقراطية الفارسية فى نظام الحكم[٥٤]؛ ولذلك يكثر الجاحظ فى هذه الرسالة من الحديث عن قريش التى اشتهرت بالتجارة منذ العصر الجاهلى، ويربط مدحه التجارة من خلال ذكره اشتقاق لفظ قريش من التجارة؛ يقول الجاحظ: "وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه، وصفيه من عباده، والمؤتمن على وحيه، من أهل بيت التجارة، وهى معوَّلهم وعليها معتمدهم، وهى صناعة سلفهم، وسيرة خَلَفهم.

ولقد بلغتك بسالتهم، ووصفت لك جلادتهم، ونعتت لك أحلامهم، وتقرر لك سخاؤهم وضيافتهم، وبذلهم ومواساتهم. وبالتجارة كانوا يعرفون. ولذلك قالت كاهنة اليمن: "ولله در الديار لقريش التجار".

وليس قولهم: قرشي لقولهم: هاشميّ، وزهري وتيمي؛ لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشًا فينتسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش، فهو أفخم أسمائهم وأشرف أنسابهم، وهو الاسم الذى نَوَّهَ الله تعالى به فى كتابه، وخصهم به فى محكم وحيه وتنزيله، فجعله قرآنًا عربيًّا يتلى فى المساجد، ويكتب فى المصاحف، ويُجهر به فى الفرائض، وحُظوة على الحبيب والخالص"[٥٥].

كتاب الحيوان

وكتاب الحيوان – وما فيه من مناظرات بين الحيوانات كمناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب، ومناظرة صاحب الضأن وصاحب المعز، والفيل والبعير – كتبه الجاحظ من أجل أهداف كثيرة؛ كعرض ما توفّر لديه

وما استنتجه ووصل إليه من معلومات علميه وأدبية وفلسفية ودينية تتعلق بالحيوانات، كما أن من أهم أغراضه فى هذا الكتاب وما فيه من مناظرات حول الحيوان إثبات قدرة الله فى خلقه، وأنه لم يخلق شيئًا عبثًا[٥٦].

يقول الدكتور سعيد منصور: ومن خلال التنوع العظيم والغنى فى المملكة الحيوانية فإن الجاحظ قد اختار الصور التى من خلالها يستطيع أن يظهر ويكشف عن الخلق العجيب فى الحيوانات وقدراتها الحسية. وبهذه الطريقة الفريدة استطاع أن يُنَمِّى مفهومه لله. وليس حجم الحيوان أو عدده أو وزنه الثقيل هو الذى يهم الجاحظ فى تأمله للحيوان، ولكنه ينظر للحيوان من أجل الدليل الواضح والقوى الذى يساعد على الاعتقاد فى التوحيد وتنزيه الله عز وجل[٥٧].

كما يؤكد الدكتور سعيد منصور على ما وراء المناظرات حول الحيوان من ارتباط بالتوحيد الإلهى ونظرة الجاحظ إلى الوجود فى قوله: "ينبغى علينا أن نفسر ما وراء هذه المناظرات من غايات تتمثل فى صلتها بالخيط الذى يجرى عبر كتاب الحيوان، ذلك أن الفهم السليم لفكر الجاحظ ومنهجه إنما يثبت أن هذه المناظرات لم تكن بعيدة الصلة عن النقطة الجوهرية فى كتاب الحيوان. ولكنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنظرته الشاملة فيه إلى الوجود"[٥٨].

كما يؤكد أن مناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب – على وجه الخصوص – ذات مضامين دينية وفلسفية فى قوله: "وإننا نرى أن المناظرة حول الديك والكلب والمناظرات الشبيهة بها حول الحيوان تقع فى صميم الجدل حول عقيدة التوحيد، كما أن لهذه المناظرات هدفًا دينيًّا ومضمونًا فلسفيًّا"[٥٩].

كما أن وراء تأليف الجاحظ كتاب الحيوان وعرضه المناظرات بين الحيوانات – هدفًا سياسيًّا يتمثل فى مواجهة الشعوبية [٦٠].

فالشعوبية تحتقر الحيوانات التى تتعلق ببيئة الصحراء العربية كالضب والكلب، وتمدح ما يرتبط ببيئاتها الأعجمية كالفيل والديك.

ويدافع الجاحظ عن العرب من خلال دفاعه عن الحيوانات التى ترتبط بهم كالكلب والضب والبعير.

كما يهاجم الشعوبية من خلال هجومه على الحيوانات التى ترتبط بهم، كالديك والفيل، وظهر هذا بجلاء فى المناظرات التى عقدها بين الحيوانات فى كتابه الحيوان، ومن ذلك مناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب.

ويكشف الجاحظ الاتجاه الشعوبى لصاحب الديك عند ذكره هجوم صاحب الديك على العرب وأمثالهم ولغتهم خلال عرضه المثل "أسمح من لافظة"، ومحاولة صاحب الديك تفسير المثل مع ما يعلى من شأن حيوانه ويقلّل من شأن حيوان منافسه.

يقول صاحب الديك: "المثل إنما يلفظ به رجل من الأعراب، وليس الأعرابى بقدوة إلا فى الجر والنصب والرفع وفى الأسماء، وأما غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب"(٦١).

ويرد صاحب الكلب على صاحب الديك مدافعًا عن العرب فى ضرورة احترام عادات العرب ولغتهم وأمثالهم فى قوله:"وإنما أنكرنا موضع المثل الذى صرفتموه إلى حجتكم، وتركتم الذين ما زال الناس يقلدونهم فى الشاهد والمثل. وإن جاز لكم أن تردوا عليهم هذا المثل جاز لكل من كره مثلاً أو شاهدًا أن يرد عليهم كما رددتم؛ وفى ذلك فساد أمر العرب كله"(٦٢).

كما يكشف الجاحظ فى كتاب الحيوان عن هجوم بعض الفرس ذوى الميول الشعوبية كالبرامكة على حيوانات العرب، كعرضه لذم الفضل بن يحيى البرمكى للضب أمام أحد الأعراب(٦٣).

كما يذكر هجوم سلمويه وابن ماسويه على البعير، ويكشف الجاحظ ما وراء هذا الهجوم من عداوة وحقد على العرب وعلى كل ما يتعلق بهم، يقول الجاحظ: "وزعم لى سلمويه وابن ماسويه متطببا الخلفاء، أنه ليس على الأرض جيفة أنتن نتنًا ولا أثقب ثقوبًا من جيفة بعير، فظننت أن الذى وهمهما ذلك عصبيتهما عليه، وبغضهما لأربابه، ولأن النبى ﷺ وعلى آله، هو المذكور فى الكتب براكب البعير"(٦٤).

ولا يخفى أن الجاحظ قد ربط هنا بين منحى الشعوبيين فى كراهية العرب وكراهية كل ما يخصّ بيئتهم ويتعلق بهم بكراهيتهم للإسلام؛ مما يعنى أن الشعوبية – فى الغالب – كانت وجهًا من عملة وجهها الآخر هو الزندقة.

كتب الجاحظ ورسائله التى أسئ فهمها وظن أنها ذات ميول شعوبية

رسالة فى الحنين إلى الأوطان

أما عن الرسائل والكتب التى أسئ فهم عنوانها أو مضمونها، وظن بعض الباحثين أنها مدسوسة على الجاحظ، فمنها رسالة الجاحظ فى الحنين إلى الأوطان.

فقد ظن الدكتور على أبو ملحم أن هذه الرسالة منحولة على الجاحظ؛ لأن فيها رواية للجاحظ مع أحد العبيد، ويَفْهم منها أن هذا العبد يهاجم العرب، وأن الجاحظ لا يرد عليه على غير عادته فى الرد على الشعوبيين، يقول الدكتور على أبو ملحم: "فى الرسالة شعوبية، والجاحظ كان خصمًا عنيدًا للشعوبية. وهذه النعرة تبدو من قول منسوب إلى أعرابى موجه للجاحظ ظاهر الاضطراب والتناقض"(٦٥).

أما عن هذه الرواية فالحقيقة أنها على عكس ذلك؛ لأن فيها مدحًا للعرب.

فقد جاء فى رسالة فى الحنين إلى الأوطان: "وقال أبو عثمان: رأيت عبدًا أسود حبشيًّا لبنى أسيد قدم من شق اليمامة فصار ناظورًا، وكان وحشيًّا مجنونًا لطول الغربة مع الإبل وكان لا يلقى إلا الأكرة، فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآنى سكن إلىّ وسمعته يقول: لعن الله أرضًا ليس بها عرب، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

حر الثرى مستعرب التُّراب

أبا عثمان، إن هذه العُرَيْب فى جميع الناس كمقدار القرحة فى جلد الفرس، فلولا أن الله رق عليهم فجعلهم فى حشاة لطمست هذه العجم آثارهم. أترى الأعيار إذا رأت العتاق لا ترى لها فضلاً! والله ما أمر الله نبيه ﷺ بقتلهم، إذ لا يدينون بدين، إلا لضنه بهم، ولا ترك قبول الجزية منهم إلا تنزيهًا لهم"(٦٦).

والذى نفهمه من هذا النص أن هذا العبد قد أنس للجاحظ لما رآه من فصاحته وبلاغته التى واتته من كثرة اختلاطه بالأعراب فى المربد وأخذه اللغة عنهم شفاهة.

وخلال حديث هذا العبد مع الجاحظ يمدح العرب، ويلعن كل أرض لا يوجد فيها عرب، وذلك لمعاناته فى التعامل مع الأكرة الذين لا يتقنون العربية ويسيئون فهمها.

كما أن هذا العبد يمدح العرب بأن الله قد عزلهم عن سائر الناس فى صحرائهم بالجزيرة العربية فلم يختلطوا بغيرهم؛ ولذا سلمت لغتهم وبقيت أصولهم بلا شوائب.

كما أن هذا العبد يرى أن مما خص الله به العرب – الذين كانوا وثنيين فى الجاهلية – دون سائر الناس أن ضن بهم على الكفر، فلم يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف.

على أنه مما يؤكد صحة نسبة رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ، وينفى زعم الدكتور على أبو ملحم حول هذه الرسالة والرواية التى علق عليها منها – أن هذه الرواية بعينها قد ذكرها الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين(٦٧).

كتاب فضل الفَرَس على الهِمْلاج

قال الدكتور مصطفى الشكعة: إن الجاحظ فيه مسحة شعوبية، وذلك لكتابته كتابًا بعنوان فضل الفُرْس(٦٨).

وقد ذكر الدكتور الشكعة أن الجاحظ قد ألف كتابًا فى فضل الفرس اعتمادًا على ما جاء فى معجم الأدباء من عرض مؤلفات الجاحظ ، فقد ذكر منها كتاب فضل الفرس، وكتاب على الهملاج(٦٩).

ومن الواضح أن ياقوتًا الحموي قد وقع فى تحريف عند ذكره أن للجاحظ مؤلفين أحدهما "فضل الفرس" والآخر "على الهملاج"، والصواب والمنطقى – فى الوقت نفسه – أن يكون الكتابان اللذان أشار إليهما ياقوت كتابًا واحدًا يكون عنوانه كالتالى " كتاب فضل الفَرَس على الهملاج"(٧٠).

فالجاحظ يقارن فى هذا الكتاب بين الفَرَس العربي الأصيل وبين الهملاج، وهو الحصان غير العربي.

ولم يصل إلينا هذا الكتاب، ولكن لا يخفى من عنوانه هذا الذى افترضناه أن يكون موازنة بين الشعوبية والعرب، وطريقًا فى مواجهة الشعوبية بتفضيل الفرس العربي على الهملاج الأعجمي .

ومن ثم فنظن أن هذا الكتاب يمثل إحدى الجولات التى صارع فيها الجاحظ الشعوبية، وخطوة فى قهر المعسكر الشعوبى؛ وبهذا فإن كلام الدكتور الشكعة حوله يعد حكمًا على الأمر بنقيض ما فيه وما يدل عليه .

كتب نُحِلَتْ للجاحظ لأسباب شعوبية

كتاب المحاسن والأضداد

أما عن الكتب التى لم تصح نسبتها للجاحظ فمنها كتاب المحاسن والأضداد[٧١] وكتاب التاج. وكان من الأسباب التى دفعت هذه الصحة عنها ما فيها من ميل لمدح الشعوبية والشعوبيين على خلاف ما عُرِف عن الجاحظ.

أما عن كتاب المحاسن والأضداد فقد ذكر الدكتور شوقى ضيف أن مؤلفه الحقيقى – فى أغلب الظن – هو نفسه مؤلف كتاب المحاسن والمساوئ – أى البيهقى –، وأن كتاب المحاسن والأضداد كان مُسَوَّدة لكتاب المحاسن والمساوئ .

ولم ينسب البيهقى الكتاب الأول لنفسه لما فيه من أفكار شعوبية والفحش فى قصصه[٧٢]، ولكنه عندما ألف كتاب المحاسن والمساوئ حذف ما فيه من فحش وأفكار شعوبية حتى يسيغه الناس ولا يتعرض للهجوم، من قبل خصوم الشعوبية[٧٣].

وتتمثل الجوانب الشعوبية فى كتاب المحاسن والأضداد فى إعلاء مؤلفه الفرس على العرب فى بعض الصفات الأخلاقية كإعلائه "ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عرف عنهم من خصلة الكرم والجود" [٧٤].

ومن الغريب أن نرى الدكتور محمد نبيه حجاب مقتنعًا بصحة نسبة هذا الكتاب للجاحظ، ويرفض تشكيك البعض فى صحة نسبته إليه مدللاً على

هذه الصحة بما فيه من "إشادة بالعرب وتفضيل لهم على العجم وهذا هو ميدان الجاحظ كما نعلم"[٧٥].

على أن هذه الإشادة وهذا التفضيل للعرب فى هذا الكتاب غير موجودين، وأما الموجود فى هذا الكتاب فهو – كما ذكرنا – تفضيل الفرس على العرب انسجامًا مع الخط الشعوبى الذى يسير عليه منهج الكتاب.

كتاب التاج

يعرض كتاب التاج للنظم الفارسية فى علاقة الملوك بخاصة الناس وعامتهم، والنظام الطبقى الذى كان سائدًا عند الفرس خلال الدولة الساسانية، ويهتم بصورة كبيرة باستعراض حياة ملوك الفرس وإظهار فضائلهم.

والأمر الخطير فى هذا الكتاب والذى يؤكد كونه منحولاً على الجاحظ – مع أسباب أخرى عديدة لا يتسع هنا المجال لتوضيحها–[٧٦] أن صاحب كتاب التاج له ميول شعوبية فارسية واضحة، فهو ينقل نظم الفرس فى علاقة الحاكم بالرعية والنظام الطبقى الفارسى، ويطلب من خلفاء المسلمين وعامة الأمة الإسلامية أن يلتزموا ذلك النهج، ويرى أن الفرس خير قدوة للمسلمين فى كل أساليب حياتهم، فكأن الأمة الإسلامية بذلك لا حياة لها إلا بهذه القوانين الفارسية، وإذن فيجب على المسلمين أن يطأطئوا لهذه الحضارة أعناقهم ويقبلوها كلها وهم مغمضو العيون[٧٧].

وأغلب الظن أن كتاب التاج قد ألفه أحد الشعوبيين ونسبه للجاحظ نصير العروبة الأكبر فى عصره بكتاباته العديدة فى الدفاع عنهم، فقد رأى هذا الشعوبى أن أفضل ما يكيد به للجاحظ والعرب أن يلصق به كتابًا يعلى من شأن حضارة الفرس، ويجعلهم القدوة والإمام للعرب[٧٨].

- هوامش الفصل الأول -

(١) الجاحظ: البخلاء. تحقيق د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط٩، ١٩٩٠م، ص٢٣٧.

(٢) الجاحظ: الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الفكر، ودار الجيل، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ١/٥ .

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين وآخرين. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ٣/٤١٦- ٤١٧ .

(٤) المصدر السابق، ٦/٧٧.

(٥) د. وديعة طه النجم: الجاحظ والحاضرة العباسية، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٥م، ص ١٨.

(٦) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق. حققه محمد محيى الدين عبد الحميد. مكتبة دار التراث، ص ١٨٩، والملل والنحل لعبد القاهر البغدادى. حققه د. ألبير نصرى نادر. بيروت، دار المشرق، لا.ت، ص ١٢٥.

(٧) الإسفراييني: التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين. عنى بعرضه وخرج أحاديثه وعلق حواشيه محمد زاهد بن الحسن الكوثرى. وعنى بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسينى. القاهرة، مطبعة الأنوار، ط١، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، ص٥٠.

(٨) الحيوان، ١/٥.

(٩) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الأوطان والبلدان، ٤/١١٤.

(١٠) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ١/٦٩ – ٧٠ .

(١١) محمد الطيب النجار: الموالى فى العصر الأموى. دار النيل للطباعة، ط١، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص١٤، وانظر أيضًا: مونتغمرى وات: الفكر السياسى فى الإسلام والمفاهيم الأساسية. ترجمة صبحى حديدى. بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت، ص١٠٩.

(١٢) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة النابتة، ٢/٢٠.

(١٣) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة النابتة، ٢١/٢ .

(١٤) المصدر السابق، ٢٢/٢ .

كما يعرض الجاحظ لهذه التبجحات والمفاخرات الشعوبية للموالى فى: رسائل الجاحظ. رسالة مناقب الترك، ٢٣/١، على أنه هناك لا يتوسع فى نقدهم وكشف ادعاءاتهم؛ لأن غرضه فى هذه الرسالة كان إيجاد روح الوفاق بينهم وبين غيرهم من العناصر التى يتكون منها الجيش والأمة .

(١٥) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط١، ١٩٩٣م، ٢١١٩/٥، و ابن النديم: الفهرست. تحقيق رضا تجدّد. بيروت، دار المسيرة، ط٣، ١٩٨٨م، ص٢١١ .

(١٦) د. طه الحاجرى: الجاحظ حياته وآثاره. القاهرة، دار المعارف، لا.ت، ص٢٣٣ .

(١٧) الحيوان، ٥/١ .

(١٨) وممن وقع فى غموض اسم هذا الكتاب : " التسوية بين العرب والعجم " د . مصطفى الشكعة الذى قال عن الجاحظ من أجله : إنه ذو ميول شعوبية " انظر كتابه : مناهج التأليف عند العلماء العرب قسم الأدب. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م، ص ١٦٩– ١٧٠، وقد أبطلنا قوله بتصحيح اسم الكتاب.

(١٩) فى المصادر والمراجع الآتية نجد من سوى بين لفظى الشعوبية والتسوية: ابن النديم: الفهرست. بيروت، دار المعرفة، لا.ت، ص ١٧٩، ود. زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٢م، ص٩٩، ونكلسن: تاريخ الأدب العباسى . ترجمة صفاء خلوصى. بغداد، المكتبة الأهلية، ص٥١.

(٢٠) الجاحظ حياته وآثاره، ص٢٤٢.

(٢١) وصل كتاب الجاحظ فخر السودان على البيضان كاملاً، ونشره عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ، وسوف نتناول وصف الجاحظ للتيار الشعوبى الزنجى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢٢) أيضًا وصلت هذه الرسالة كاملة ونشرها عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ.

(٢٣) البيان والتبيين، ٣٣/١ – ٣٤ .

(٢٤) عبد الكريم النهشلى: اختيار الممتع فى علم الشعر وعمله. تحقيق د. محمود شاكر القطان. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٨٣م، ص ٤١٨.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٤١٩.

(٢٦) البيان والتبيين، ٣٣/١ – ٣٤.

(٢٧) الحيوان، ٥١٠/٣، والجاحظ: البرصان والعرجان، والعميان والحولان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٣٢٤ ، ٤٠٥.

(٢٨) البرصان والعرجان ، ص٤٠٥، وانظر أيضًا المصدر السابق، ص ٣٢٤.

(٢٩) لم يصلنا هذا الكتاب ولكن أشار إليه ونقل نصوصًا منه ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابى الحلبى وشركاه، ط٢، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ٦٨/١١، ٦٩.

(٣٠) شرح نهج البلاغة، ٦٨/١١ .

(٣١) وانظر نصًّا آخر من هذا الكتاب يدلل الجاحظ فيه بالأدلة من الأخبار والروايات على نبذ الطعن فى الأنساب، فى شرح نهج البلاغة، ٦٩/١١ .

(٣٢) د. جميل جبر: الجاحظ ومجتمع عصره. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م، ص ١٨، والجاحظ حياته وأدبه وفكره. بيروت، دار الكتب اللبنانية للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص٥١، وهاملتون جب: دراسات فى حضارة الإسلام. ترجمة د. إحسان عباس، ود. محمد يوسف نجم، ود. محمد زيدان. دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٩م، ص٩٣ –٩٤ ، و د. عبد السلام المسدى ، قراءات مع الشابى والمتنبى والجاحظ وابن خلدون. دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م، ص١٠١ .

(٣٣) البيان والتبيين، ٥/٣ – ١٢٤.

(٣٤) البخلاء، ص ٩– ٢٨.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢١٣ – ٢٤٤.

(٣٦) د. عبد العزيز الدورى: الجذور التاريخية للشعوبية. بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٦٢م، ص١١٢، وانظر أيضًا: الجاحظ ومجتمع عصره، ص ١٧، والجاحظ حياته وأدبه وفكره ، ص٣٤، وفاروق سعد: مع بخلاء الجاحظ. دراسة تحليلية مقارنة مع منتخبات. بيروت، دار الآفاق، ط٤، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م، ص٣٣، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات ، ص٣٧٢ ، وضياء الصديقى: بحث بعنوان

"فنية القصة فى كتاب البخلاء والجاحظ" منشور ضمن مجلة عالم الفكر. المجلد العشرون، العدد الرابع ، ١٩٩٠م ، ص١٥٩، ومادة بخل لشارل بللا فى دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية إعداد وتحرير. إبراهيم زكى خورشيد، وأحمد الشنتناوى، وعبد الحميد يونس. القاهرة، كتاب الشعب، ط٢، ١٩٦٩م، ٣٨٨/٦، ود. محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى. القاهرة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص ٤٤٧-٤٤٨، فى حين تذكر د. وديعة طه النجم أن الصراع العنصرى أو الشعوبية لم تكن هى العامل الحقيقى الذى دفع الجاحظ وغيره من المؤلفين للكتابة فى البخل والبخلاء، انظر كتابها : الجاحظ والحاضرة العباسية، ص ٢١٧.

(٣٧) البخلاء ، ص ١٤٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٣٨) البرصان والعرجان ، ص ٨٣ .

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٣١ ، ٣٤ .

(٤٠) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٧.

(٤٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٤٣) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فى نفى التشبيه، ٣٠٧/١ ، وانظر أيضًا الحيوان، ٣٩/٣ .

(٤٤) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فى الجد والهزل، ٢٤٠/١ ، ٢٦٥ .

(٤٥) معجم الأدباء، ٢١١٨/٥.

(٤٦) د. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى. القاهرة، دار المعارف، ط٢٦، ١٩٨٦م، ص ٥٩٨ .

(٤٧) د . محمد عمارة : العرب والتحدي. القاهرة، كتاب الهلال، ديسمبر١٩٨٢م/ ١٤٠٣ هـ ، ص ٧٣- ٧٤ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٤٩) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فى الجد والهزل، ٢٤٠/١.

(٥٠) ذكر الجاحظ فى نص مهم فى كتاب مفقود له أسباب ميل الفرس للواط وعدم وجود هذا الميل عند العرب فى جاهليتهم . انظر هذا النص فى كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، للثعالبى. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٥٥٣ – ٥٥٤ ، وانظر بشأن هذه الرسالة والرمز فيها للصراع بين الشعوبية والعرب ، د. مصطفى الصاوى الجويني : مدارس التفسير القرآني. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م، ص١٨٤.

(٥١) رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مفاخرة الجوارى والغلمان، ٢/ ١٠٥.

(٥٢) رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى تفضيل البطن على الظهر، ١٦٢/٤.

(٥٣) المصدر السابق، ١٦٤/٤ .

(٥٤) الجاحظ حياته وآثاره، ص ٢٨٦ – ٢٨٧.

(٥٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من رسالته فى مدح التجارة وذم عمل السلطان، ٢٥٥/٤ – ٢٥٦ .

(٥٦) انظر الحيوان، ٢٩/٣ ؛ ١٠٥/٥ ؛ ٩/٦ – ١٠ ؛ ٩/٧ .

(57) DR. SAID H. MANSUR: THE WORLD VIEW OF AL- JAHIZ IN K. AL- HAYAWAN (ALEXANDRIA, DAR AL MAAREF,76 – 1977), P.105 .

(58) THE WORLD VIEW OF AL-JAHIZ, P. 45.

(59) THE WORLD VIEW OF AL-JAHIZ, P. 117.

(٦٠) د. شارل بللا: الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء. ترجمة د. إبراهيم الكيلانى. دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١م، ص ٨–٩ ، ٤٠٢ ، والعصر العباسى الثانى ، ص ٥٩٨ ، ٦٠١، والجاحظ حياته وآثاره ، ص ٤٠٣ – ٤٠٦، وصموئيل عبد الشهيد: الروح العلمية عند الجاحظ فى كتاب الحيوان . بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ط ١ ، ١٩٧٥م ، ص ٥ .

(٦١) الحيوان، ١٥٠/٢ – ١٥١ .

(٦٢) المصدر السابق، ١٥١/٢ – ١٥٢.

(٦٣) المصدر السابق، ٩٠/٦ – ٩١ .

(٦٤) المصدر السابق، ٢٤٦/١.

(٦٥) د. على أبو ملحم: مقدمة "رسائل الجاحظ، الرسائل السياسية". بيروت، دار مكتبة الهلال، ط١، ١٩٨٧م، ١٨– ١٩.

(٦٦) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة فى الحنين إلى الأوطان، ٢٠٥/٢ –٢٠٦ ، ورسائل الجاحظ. الرسائل السياسية . جمع د. على أبو ملحم ، ص ١٩.

(٦٧) البيان والتبيين، ٢ /٧١ –٧٢ .

(٦٨) مناهج التأليف عند العلماء العرب قسم الأدب ،ص ١٦٩ .

(٦٩) معجم الأدباء، ٥ / ٢١١٩ – ٢١٢٠ .

(٧٠) وقد يكون هذا الخطأ من أحد نسّاخ الكتاب أو من محققه وليس من ياقوت نفسه.

(٧١) انظر البحث القيم الذى كتبه أستاذنا الدكتور سعيد منصور حول كتاب المحاسن والأضداد فى نسبته إلى الجاحظ وانتمائه إلى المرحلة الكلامية ضمن كتابه: النثر العربى فى مراحل تطوره حتى نهاية القرن الثالث الهجرى، ص ١٧٦– ١٩٧.
وفيه ينفى د. سعيد منصور صحة نسبة هذا الكتاب للجاحظ ؛ لأن الأسلوب المتبع فى هذا الكتاب هو عرض الروايات دون تدخل مؤلف الكتاب فيها ، خلاف أسلوب الجاحظ الذى يجمع بين الرواية والتأليف ، والعرض والرأي، والفحص والبحث.

(٧٢) د. شوقى ضيف: العصر العباسى الأول.القاهرة، دار المعارف، ط٦، ص ٥٤٤ ، ٥٤٧.

(٧٣) المرجع السابق، ص ٥٤٧.

(٧٤) المرجع السابق، ص ٥٤٤.

(٧٥) مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى، ص٤٥٢.

(٧٦) انظر فى هذا رسالتى للدكتوراة المخطوطة: أدب الجاحظ فى صلته بتيارات عصره السياسية. إشراف الأستاذ الدكتور/ سعيد حسين منصور. نوقشت بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ٢٠٠٤م، ص٢٢ – ٢٩.

(٧٧) انظر: التاج المنسوب للجاحظ. تحقيق أحمد زكى باشا. إيران. فروردين، ط١، ١٣٧٠هـ، ص٢١– ٢٢.

(٧٨) بعض الكتاب والباحثين قديمًا وحديثًا اعتقدوا صحة نسبة هذا الكتاب للجاحظ ونقلوا نصوصًا عنه مثل الزمخشرى فى كتابه: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. تحقيق عبد الأمير مهنا. بيروت، مؤسسة الأعلمى، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ٤٥١/٢؛

١٠٤/٣. وفى العصر الحديث ممن أكد نسبة كتاب التاج للجاحظ أحمد زكى باشا فى مقدمته لكتاب التاج، ص٤٧، والدكتور عبد الحكيم بلبع فى كتابه: النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه. القاهرة، لجنة البيان العربى، مطبعة الرسالة، ١٩٦٩م، ص٢١١، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه: الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى. بيروت، دار الجيل، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٣٥٩، والدكتور فوزى عطوى فى كتابه: الجاحظ دائرة معارف عصره. بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص٩٧.

ومن الباحثين الذين يرفضون نسبة كتاب التاج للجاحظ – وأنا أتفق معهم فى هذا كل الاتفاق – حسن السندوبى فى كتابه: أدب الجاحظ. القاهرة، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ص١٥٢، ومحمد كرد على فى كتابه: أمراء البيان. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، ٣٦٠/٢، وكارل بروكلمان فى كتابه: تاريخ الأدب العربى. ترجمة د. عبد الحليم النجار. القاهرة، دار المعارف، ١٢٦/٣ – ١٢٧، ود. شوقى ضيف فى كتابه: العصر العباسى الثانى، ص ٥٢٥، ود. محمد زغلول سلام فى كتابه: دراسات فى الأدب العربى، العصر العباسى. منشأة المعارف بالإسكندرية، ص٤٥١، ومن الباحثين الذين أشاروا لكون كتاب التاج ملصقًا على الجاحظ من قبل بعض الشعوبيين الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه: الجذور التاريخية للشعوبية، ص٦٧، والدكتور على أبو ملحم فى كتابه: المناحى الفلسفية عند الجاحظ. بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨، ص٢٧٩.